

## سعة رحمة الله وفضله



قال تعالى: (وَإِذْ كَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّرِّيَّةِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِزْنًا هُدًى لَنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/ 156).

المفتاح:

رحمة الله واسعة، فتعرض لها لتحصل عليها، فإذا استجاب الله تعالى لك، زادك من فضله ورزقك بغير حساب.

1- سعة الرحمة:

يطلب المؤمنون من الله تعالى أن يشملهم برحمته، بحسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة، فيذكّرهم بعذابه للعاصين، ورحمته الواسعة التي لا حد لها.

سعة رحمة الله تعالى لا تترك مجالاً في الحياة إلا وتشمله، فهي تشمل المؤمنين والكافرين، وتشمل المخلوقات الحية والجمدة، وتشمل كل ما في هذه الكون من دون استثناء، (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)، فلا رحمة يبتغيها الإنسان خارج الرحمة الإلهية التي تسع كل شيء من دون استثناء.

تبدأ سور القرآن الكريم بالبسملة: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، ما عدا سورة

براءة، وتُستحبُّ البسمة عند الشروع بأي عمل، أكان نشاطاً أو طعاماً أو كتابةً أو قراءةً أو أي شيء. البداية (بِسْمِ اللَّهِ) لتنتقل أعمالنا مرعيةً لأوامره، طالبةً عونه. تذكرنا البسمة برحمة الله تعالى الواسعة، فالرحمن هو الرحيم، وهو الرحيم. الرحمن من الرحمة، والرحيم من الرحمة، لكن يفرِّق المفسرون بين الرحمن والرحيم، فالرحمن هو الذي تسع وتشمل رحمته المؤمن والكافر في الدنيا، وأمَّا الرحيم فهي رحمة الله تعالى المختصة بالمؤمنين في الآخرة، كما ورد في الآية القرآنية: (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة/ 128).

إذاً رحمة الله تعالى حاضرة في كلِّ آنٍ، وتسع كلَّ شيء، وبشكل خاص المتقين، قال تعالى: (فَسَاءَ كَثُوبُهَا لِلَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ)، الذين يعيشون مع هذه الرحمة في كلِّ حركةٍ وسكينةٍ وأداء. هؤلاء المؤمنون يقومون بتكليفهم الشرعي، (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)، فيدفعون الأموال المستحقة على أموالهم وممتلكاتهم التي يترتب عليها الزكاة والحقوق الشرعية، إنهم يؤتون الزكاة.

(وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)، يؤمنون بآيات الله الدالة عليه، والآيات جمع آية، والآية علامة، والعلامة تدل على الله تعالى، فالسما من آيات الله، وكذلك الأرض والإنسان وجميع مخلوقات الله تعالى، والآيات القرآنية أيضاً هي من آيات الله تعالى، لأنها دالة على الله، إذ إن الأحكام والتعاليم التي يذكرها الله تعالى في هذا القرآن الكريم تدل على الخالق المدبر العظيم.

الرحمة الإلهية لجميع الناس، قبل أن يسألوا عنها، فهي ليست محصورة بالسؤال والطلب، تشملك الرحمة وأنت طفل، وتحيطك وأنت شاب، كما تتوقع لها وأنت كهل، ففي دعاء شهر رجب المستحب بعد كلِّ فريضة يومية: "يا مَنْ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، يا مَنْ يُعْطِي مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ تَحَنُّناً مِنْهُ وَرَحْمَةً، أعطني بما سألتني إياك جميع خير الدنيا وجميع خير الآخرة، واصرف عني بما سألتني إياك جميع شر الدنيا وشر الآخرة". فإذا ما كنت مؤمناً يزيدك الله تعالى من عطائه إضافة إلى ما أعطاك، ويضيف من رحمته عليك إضافة إلى الرحمة العامة التي يعطيها للناس بشكل عام.

حدثنا الله تعالى عن إرسال محمد (ص) فقال: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء/ 107)، بإرسال النبي (ص) رحمة، فهو يدلُّ الناس على طريق الهدى، ويرشدهم لما فيه مصلحتهم، ويأخذ بأيديهم ليكونوا متقين، ولولاه لعاشوا الضياع والصلال، وخضعت حياتهم للتجارب الخاطئة والسلبية.

يختار الماديون منهجهم البشري، فيجربون ويخطئون، ثمَّ يعتذرون بنقص الخبرة وانكشاف أمورٍ جديدة! يقررون هذه النظرية التربوية، وبعد عشر سنوات يغيِّرون رأيهم بها، وهكذا... يغيرون ويبدلون دائماً، وتدفع مجتمعات بكاملها أثماناً لهذا التغيير، ثمَّ يكتشفون بأنهم مخطئون!

أرسل الله تعالى لنا النبي محمد (ص) ليهدي البشرية، وهذه من أعظم الرحمات علينا. فعندما نعرف أيَّ طريق نسلك، وأيَّ طريق تهدي إلى النور، وأيَّ طريق تُريح في حياتنا وتطمئننا بأننا نمضي في هذه الدنيا بشكلٍ سليم في علاقاتنا الثلاث مع ربِّنا وأنفسنا ومجتمعنا، وأيَّ طريق تدخلنا يوم القيامة إلى جنة الله تعالى لنحيا مستقرين فيها، فهذا من أعظم الرحمات. فلا تستهينوا برحمة الإسلام، ورحمة القرآن، ورحمة محمد (ص) وآل محمد (عليهم السلام).

قال تعالى: (وَلَقَدْ جَاءنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/ 52)، فالكتاب (وهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف/ 111)، لاحظوا ربط الهداية بالرحمة، وفي الواقع الهداية هي الرحمة العظمى.

وقال الرسول (ص): "لو تعلمون قدر رحمة الله تعالى لاتَّكلتُم عليها" هذا المقدار من التسليم لله تعالى يُطمئن الإنسان ويربِّحه فيما قسم الله تعالى في هذه الدنيا. ولكن مشكلتنا نحن البشر أننا لا نعلم سعة رحمة الله، فإذا واجهتنا مشكلة أو عقبة معينة نعتمد على أنفسنا، ونعتقد بأننا نستطيع فعل ما نشاء! ولكن الأمور تسير بغير ما تشتهي الأنفس في بعض الأحيان، فعلى الإنسان أن يقبل ذلك، ويعرف أن لا نصيب له في الأمر، وليتوكل على الله تعالى بحثاً عن المأمول، أو انتظاراً لعطاء الله تعالى.

قسَّم الله تعالى الإمكانيات والأرزاق بمقادير قدرها للعباد، ما لا طائل معها من السعي لتجاوزها، فقد وزَّع الله بتقديرٍ من رحمته، قال تعالى: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) (الزخرف/ 32). اعلم أنك مخلوق لله تعالى الذي يقسَّم الرحمة ويوزَّعها، فعُد



3- لا تَقْدَاطُوا:

علينا أن لا نياس مهما كانت الظروف التي نمر بها، يقول تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/ 53). يعطي الله تعالى الفرص الكثيرة للتوبة والعودة عن المعاصي، فلا يحاسب على السيئات مباشرة، وإنما يؤجله للاستفادة من التوبة والغفران لكل أنواع الذنوب، وهذا من رحمة الله تعالى وفضله.

على الإنسان أن لا يغترّ بالرحمة فيفرح ويزهو بها ناسياً مسؤولياته، كما عليه أن لا يفقد الأمل إذا ما وقع في اختبارات صعبة وأصابه البلاء، قال تعالى: (إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ) (الشورى/ 48). على الإنسان أن لا يياس من رحمة الله عز وجل، الذي يعوض عليه في الدنيا قبل الآخرة، ولو كان مسيئاً لخسائره ويتحمل مسؤوليتها.

جاء رجل إلى الحسن البصري، وسأله عمّن يدخل إلى الجنة ومن يدخل إلى النار، فأجاب: "ليس العجبُ ممن هلكَ كيف هلك، وإنما العجبُ ممن نجا كيف نجا"، مبيناً صعوبة النجاة في يوم القيامة، وقلة الناجين. ثم جاء السائل إلى الإمام زين العابدين (ع) فروى له حديثه مع الحسن البصري وجوابه عن مسأله، فقال الإمام (ع): "أنا أقول: ليس العجبُ ممن نجا كيف نجا، إنما العجبُ ممن هلكَ كيف هلك مع سعة رحمة الله"، مبيناً بأسر النجاة، فرحة الله الواسعة تسبق كل الاحتمالات، ولا يكون الهلاك إلا بسبب جود الإنسان. لا تياس من رحمة الله تعالى، وأعد حساباتك، وتعرّف على أخطائك، وعالج ثغراتك، وأنت متأملٌ باستنزال الرحمة الإلهية، والاستفادة من الفرص المتاحة لك، (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَوَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) (لقمان/ 34).

4- استنزال الرحمة:

نحن بحاجة إلى استنزال الرحمة الإلهية علينا، فإذا قمنا ببعض الأعمال والأذكار فسنحصل عليها، وقد أرشدتنا الأحاديث الشريفة إلى خطوات استنزال الرحمة، ومنها:

1- مراجعة الأعمال والاستعانة بالدعاء والمناجاة: فعن الإمام الباقر (ع): "تعرّف من الرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الطلسم"، راجع نفسك وأعمالك، وراقب تفاصيل حياتك، لكشف العلل وموارد التقصير، ثم اعمل على إصلاحها، واستعن على حسن ذلك، بخالص الدعاء متقرباً إلى الله تعالى ومناجياً له، ليساعدك في جوف الليل المظلم والبطالون نيام.

2- طاعة الله تعالى: قال رسول الله (ص): "تعرّفوا لرحمة الله بما أمركم من طاعته"، فعندما تنفذ أوامر الله تعالى في العبادات والمعاملات فأنت تلتزم بخط الطاعة، وقد وعد الله برحمة عباده المؤمنين الذين يطيعونه فيما أمر، إنّه غفور رحيم.

3- ذكر الله تعالى: يقول أمير المؤمنين علي (ع): "بذكر الله تستنزل الرحمة"، يكون ذكر الله تعالى باللسان: سبحان الله، والحمد لله، والشكر لله، ويكون بالقلب الذي يلهم به، وأثناء العمل بالحرص على رضا الله تعالى، وعلى كل الحالات: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) (آل عمران/ 191).

4- العفو: فعن أمير المؤمنين (ع): "بالعفو تستنزل الرحمة"، فاعف عن الآخرين، وسامح بحقوقك، تتعالى عن الخصوصية، فيكافئك الله تعالى عليه، وينزل رحمته عليك، فتبلغ مقاماً محموداً.

-5 بذلُ الرحمة: عن أمير المؤمنين (ع): "بذل الرحمة تستنزل الرحمة"، فإنّ تعالى يرحمك عندما ترحم الناس، فارحم الصغير عند الخطأ، وارحم الكبير تقديراً لسنّه، وارحم من ارتكب خطأً بحقك بعدم معاقبته، وليكن دينك الرحمة في علاقتك وتصرفاتك.

-6 رحمةُ النفس والناس: في جوابه (ص) لرجل جاءه سائلاً: أحب أن يرحمني الله، قال رسول الله (ص): "ارحم نفسك وارحم خلق الله يرحمك الله"، فمن سلك طريق الرحمة لنفسه وللناس استحق رحمة الله تعالى.

-5 عطاءٌ لا ينضب:

العطاء الإلهي لا ينضب ولا يتوقف، يقول الإمام الكاظم (ع): "واعلم أن الله لم يرفع المتواضعين بقدر تواضعهم، ولكن رفعهم بقدر عظمتهم ومجده، ولم يؤمن الخائفين بقدر خوفهم، لكن آمنهم بقدر كرمه وجوده، ولم يفرح المحزونين بقدر حزنهم، ولكن بقدر رأفته ورحمته"، فاليوم عندما تتواضع لا يرفعك الله بقدر تواضعك، وإنما يرفعك بقدر عظمتك، فإذا رفعتك تواضعك عشر درجات، يتدخل الله تعالى ليرفعك أضعافاً مضاعفة، بما يتجاوز عطاءك بكثير، وربما يتجاوز طلبك بكثير، فهذا من سعة رحمة الله تعالى. ▶

المصدر: كتاب مفاتيح السعادة